ماهية التعلم :

مقدمة :

لا تقتصر أهمية دراسة موضوع التعلم على كونه أحد فروع المعرفة فحسب، ولكن على ارتباطه الوثيق بالنشاط الإنساني والحيوي أيضاً. فالتعلم يعني أساساً دراسة التغيّرات التي تطرأ على السلوك والخبرة، ومثل هذه التغييرات تشمل عمليات اكتساب السلوك أو الخبرة، أو التغيير في السلوك والخبرة، أو عمليات المحو للسلوك واستبداله بسلوك جديد. ومن هذا المنطلق، نجد أن موضوع التعلم يبدو على درجة عالية من الأهمية والحساسية، إذ يستحق الدراسة والبحث والتحقيق للتعرف على خصائص السلوك وأسبابه وعوامله ومتغيراته، بالإضافة إلى التعرف على الأسباب والعوامل التي تؤدي إلى حدوث التغييرات في هذا السلوك في المواقف المتعددة والعوامل التي قد تؤثر عليه. وهكذا، فإن دراسة عمليات التعلم تمكننا من وضع المبادئ والمفاهيم والمناهج المرتبطة بالسلوك، والتي يمكن من خلالها تفسير هذا السلوك وتنبؤه وتوجيهه وضبطه بطريقة تعود بالنفع على الفرد والمجتمع. وتجدر الإشارة هنا إلى أن مثل هذه المبادئ والقوانين ليست بديلاً للدين، لأن استخدامها يمكن تكييفه بطريقة تناسب طبيعة الثقافة السائدة في أي مجتمع. وكل ما نهدف إليه هو توجيه السلوك وضبطه بطريقة تساعد الفرد على التكيف مع التحديات البيئية والاجتماعية والثقافية التي تسود في المجتمع الذي يعيش فيه الفرد، والتي بالتالي تساعده على رفع كفاءته السلوكية.

ونظراً لأهمية هذا الموضوع، فقد حظي بتأييد الفلاسفة والمفكرين منذ القدم، حيث سعوا إلى وضع العديد من الافتراضات والتفسيرات حول التعلم، ممثلة ذلك في بحث مصادر المعرفة ومكونات العقل والذاكرة وعلاقتها بالروح والجسد. ومثل هذه المساهمات شكلت منطلقاً للعديد من النظريات السلوكية والمعرفية التي ظهرت حديثاً في مجال التعلم. وبالرغم من أن العديد من النظريات الحديثة اعتمدت المناهج العملية القائمة على إجراء التجارب على الحيوانات في دراستها للتعلم، فإن ذلك لا يعني بالضرورة أن السلوك الإنساني لم يكن محور اهتمامها. إذ إن إجراء الدراسات على الحيوانات له مبرراته، إذ يمكن أن تساهم في فهم السلوك الإنساني والتعرف على أسبابه وعوامله.

تعريف التعلم :

يصعب العثور على تعريف واضح ومحدد لعملية التعلم، ويرجع السبب في ذلك إلى عدم إمكانية ملاحظة هذه العملية بشكل مباشر؛ حيث لا تشكل شيئًا ملموسًا يمكن قياسه مباشرة. التعلم يُفهم عمومًا كعملية افتراضية يمكن الاستدلال عليها من خلال السلوك أو الأداء الخارجي. يرجع اختلاف في تحديد تعريفه إلى وجهات نظر متنوعة حول طبيعته، مما يتسبب في اختلاف في الافتراضات النظرية.

هناك العديد من علماء النفس يعرّفون التعلم من خلال السلوك الخارجي. على سبيل المثال، يعرّفه كرونباخ (1977) على أنه تغيّر شبه ثابت في السلوك نتيجة الخبرة، في حين ينظر كلوزماير إليه على أنه تغيّر في السلوك نتيجة لشكل أو أشكال الخبرة أو النشاط أو التدريب أو الملاحظة. ويعرّفه كلني (1978) على أنه تغيّر شبه دائم في السلوك نتيجة الخبرة الناجحة، فيما يعرّفه البعض الآخر بدلالة القدرات أو العمليات المعرفية، حيث يرى بياجيه أن التعلم عبارة عن تغيّر في الخبرة والبنى المعرفية الموجودة لدى الفرد. ويعرّفه جانيه (1977) على أنه تغيّر في قابليات الأفراد التي تمكنهم من القيام بأداء معنى، بينما يعرّفه بيجي (1976) على أنه التغيّر في التبصر والسلوك والأداء والدافعية أو مجموعة منها. وهناك من يعرّفه على أنه تغيّر في عمليات استقبال المعلومات ومعالجتها.

استنتاجًا، يُمكن تلخيص تعريف التعلم على أنه عملية حيوية ديناميكية تتجلى في تغيرات ثابتة نسبيا في السلوك والعمليات المعرفية، والتي تحدث نتيجة لتفاعل الأفراد مع البيئة المادية والاجتماعية.

التطور التاريخي لمصطلح التعلم :

1-المدهب الترابطي ASSOCIATIONISM:

يعد أرسطو (388-384 ق.م) من أشهر الفلاسفة اليونانيين القدماء الذين ساهموا في تطوير هذا المذهب، وقد تبنى العديد من الفلاسفة البريطانيين مثل هوبز وجون لوك وجون ستيورات وهارتلي وهليوم وغيرهم أفكار أرسطو، مما أدى إلى ظهور ما يسمى بالمدرسة التجريبية (Empiricism) أو ما تعرف بالمدرسة الترابطية. وانتقلت هذه الأفكار لاحقًا إلى ألمانيا على يد عالم النفس فونت الذي أسهم في إنشاء أول مختبر في مجال علم النفس وتأسيس ما يسمى بالمدرسة البنائية، ومن هناك انتقلت أفكار المدرسة الترابطية إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وظهر ما يسمى بالمدرسة السلوكية على يد جون واطسون وثورنديك.

يرى أرسطو أن المعرفة تتألف من مجموعة من الاحساسات الرئيسية، لأن الإنسان يولد وعقله صفحة بيضاء "Resa Tabula"حيث تنطبع فيه الاحساسات المختلفة لتشكل الأفكار عبر عمليات التفاعل مع البيئة. الحواس المختلفة تزودنا بالمعلومات الأساسية مثل الأصوات والروائح والمرئيات والمذاقات المرتبطة بالأشياء الخارجية، والتي تشكل الأفكار وفق مبادئ ميكانيكية. ويرى أرسطو أن الحواس هي مبثابة النوافذ الرئيسية التي يطل من خلالها العقل على العامل الخارجي، وأن الأفكار تكون في البداية بسيطة وقليلة العدد، ولكن نتيجة لعمليات التفاعل المستمرة مع البيئة، تزداد عددا وتعقيدا. وبهذا المنظور، نجد أن أرسطو يؤكد مبدأ الترابطية، حيث يرى أن الأفكار تنشأ بفعل ترابط الاحساسات البسيطة معًا لتشكيل ما يسمى بالأفكار المعقدة وفقًا لثلاثة مبادئ رئيسية وهي: مبدأ التجاور الزمني أو المكاني، ومبدأ التشابه، ومبدأ التنافر.

ينطلق المذهب الترابطي في نظرته إلى التعلم من عدد من الافتراضات تتمثل بالآتي:

1. **الحسية :Sensationalism** تؤكد الترابطية أن المصدر الوحيد للمعرفة هو الخبرة الحسية، حيث تنشأ جميع الأفكار والسلوكيات بفعل الخبرات الحسية الرئيسية التي نتلقاها من خلال تفاعلاتنا مع العامل. وترى أن المصدر الرئيسي لهذه المعرفة هو في الأصل الخبرة الحسية التي نستقبلها بواسطة الحواس الخمس الرئيسية.
2. **الاختزالية :Reductionism** تؤكد الترابطية أن أفكار العقل ومكوناته المعقدة تتشكل من خلال ارتباط عدد من الاحساسات والأفكار الأولية البسيطة لتتشكل منها الأفكار والخبرات المعقدة. وميكن اختزال هذه الأفكار مرة أخرى في أفكار بسيطة.
3. **الترابطية :Associationism** يرى المذهب الترابطي أن مكونات العقل هي مبثابة مجموعة من الأفكار أو الاحساسات البسيطة التي تجمعت معًا وفقا لمبدأ الاقتران أو الارتباط. وقد يحدث الارتباط وفق زمن مثل تجاور حدوث الخبرات معًا في زمن محدد، أو وفق مكان كتقارب حدوث الخبرات في المكان.
4. التجريبية :Empiricism تؤكد الترابطية على ضرورة إجراء الملاحظة العلمية والتحليل الموضوعي للخبرات والأنماط السلوكية اعتمادًا على الوقائع التجريبية وبعيدًا عن الآراء والأفكار الذاتية.
5. الميكانيكية :Mechanism ترى الترابطية أن العقل يعمل كالآلة حيث أن مكوناته تتألف أصلاً من مجموعة عناصر بسيطة تم تجميعها معًا وفقًا لروابط معينة. وهذا يعني أنه لا يوجد فيه أصلاً أية معلومات خفية فطرية. فالعقل البشري حسب هذا المنهج سلبي ينحصر دوره في استقبال المعارف حول العامل

الخارجي من خلال الحواس المختلفة ويعمل فقط على تجميعها معًا وفق أحد المبادئ السالفة المذكورة لتكوين ما يسمى بأفكار العقل.

وأخيرًا، فإن المذهب الترابطي يؤكد آليتين رئيسيتين حول التعلم :١ أن التمثيلات الداخلية للأفكار البسيطة أو ما يسمى بالآثار الذاكرية أو صور الذاكرة هي مبثابة متثيلة حقيقية للانطباعات الحسية المرتبطة بالأشياء التي نختبرها في العامل الخارجي .٢ أن الأفكار المعقدة تتشكل من خلال الارتباطات بين مجموعة من الأفكار البسيطة التي مُتَّ خبرتها معًا وفقًا لبعض الزمان أو المكان. وترى أن هذه الارتباطات تقوى وفقًا لأربعة عوامل هي: حيوية الخبرات، تكرار عمليات الاقتران، استمرارية الخبرات، وحداثة الخبرات.

فيما يتعلق بمبدأ الانعكاس أو التجريدreflection Mental ، فهو الصفة الوحيدة التي لا تجعل من العقل مجرد مسجل سلبي للانطباعات الحسية وذلك حسب فلسفة جون لوك. فمن خلال هذا المبدأ يمكن للعقل توليد واستنتاج أفكار جديدة بالربط والمقارنة بين الأفكار الموجودة فيه، ويتم ذلك من خلال ثلاث عمليات هي : ١ التجريد :Abstraction ويعني التوصل إلى مجموعات أو فئات من الأشياء اعتمادًا على اشتراكها بعدد من الخصائص الحرجة أو العامة. فمن خلال تناول عدد من الأفكار وربطها ومقارنتها معًا يمكن التوصل إلى ارتباطات وأفكار جديدة .٢ الاستدلال :(Inference) استخدام قواعد المنطق المتعلقة بعمليات الاستقراء والاستنتاج للوصول إلى معلومات جديدة .٣ الاستقراء :Induction ويعني التوصل إلى مبدأ أو قاعدة من خلال مجموعة جزئية، أو التوصل إلى نتائج منطقية بناءً على معلومات جزئية معروفة مسبقًا.

2-المذهب العقلانيRATIONALISM :

ترجع جذور هذا المذهب إلى الفيلسوف اليوناني الشهير أفلاطون (347-427 ق.م)، حيث يرى أن جميع مناط المعرفة هي فطرية غير مكتسبة، وأن مصدر هذه المعرفة هو العقل. وقد جاءت مثل هذه المعلومات إليه من خلال عامل المثل. لقد قسم أفلاطون بين الاحساسات القادمة من خلال الحواس المختلفة وبين ما يُعرف بالأفكار (التي تُتيح لنا التفكير العقلاني). فهو يرى أن المعرفة تولد مع الإنسان ولا يمكن القول بوجود عملية تعلم، بل يتم استرجاع أو تذكير ما هو موجود في العقل فعلاً.

واعتمدًا على ذلك، فإن المصدر الرئيسي للمعرفة هو المحاكمة العقلية وليس الحواس، وتلعب عمليات أخرى مثل الوعي والحدس دورًا هامًا في تكوين مثل هذه المعرفة. يرى المذهب العقلاني أن الخبرات الحسية ليست مصدرًا رئيسيًا للمعرفة، لأنها مشوشة وغير منتظمة، وتساهم فقط في توفير المعلومات الخام عن الأشياء الخارجية. وتحتاج هذه المعلومات إلى المزيد من العمليات والمعالجات العقلية لتصبح ذات معنى، أو تتطلب الأفكار الفطرية لتفسيرها. فالنظام المعرفي مزود

بآليات إدراكية فطرية مهيئة لمعالجة مثل هذه المعلومات، وتتم هذه المعالجة وفقًا لفئات معينة من الافتراضات الإدراكية الفطرية.

الفطرية :يؤكد المذهب العقلاني على وجود الاستعدادات الفطرية التي تولد مع الإنسان، حيث تعتبر عمليات التعلم والتذكر جزءًا من البنية الوراثية ومستقلة نسبيًا عن أي خبرة خاصة قد يتعرض لها الفرد خلال تفاعلاته اليومية. وعلى الرغم من أن نظريات التعلم المعرفي تستند إلى هذا الافتراض، إلا أنها تقلل من تطرفه في التأكيد عليه، حيث ترى أن الخبرة والتفاعل مع البيئة تلعب دورًا في تشكيل خبرات ومعارف الأفراد.

الكلية :يرى المذهب العقلاني أن عملية تحليل الخبرة إلى وحدات أو عناصر صغرية هي مضيعة للوقت، حيث لا يؤدي تحليلها إلى فهمها. ولذلك، يرى ضرورة دراسة الخبرة كوحدة كلية لضمان عدم فقدان المعنى أو الوظيفة. وبناءً على

الحدس :يؤكد المذهب العقلاني على أهمية الحدس كآلية للمعرفة والسلوك الإنساني، حيث يمتلك الإنسان القدرة على السلوك بكفاءة عالية باستخدام قدرات عقلية مثل الاستدلال والتفكير والحدس.

العوامل المؤثرة في التعلم :

1-النضج :

يشير مفهوم النضج إلى جميع التغيرات الحسية والجسدية والعصبية التي تطرأ ع الكائن الحي والمحكومة بالمخطط الجيني الوراثي .ويعدالنضج عنا هاما في التعلم، إذ لا يمكن حدوث بعض أنماط التعلم أو اكتساب بعض الخبرات ما لم يتم اكتمال نضج بعض الأعضاء الجسمية .فع سبيل المثال، لا يمكن تعلم النطق والكلام

ما لم يتم نضج أجهزة الكلام، ولا ركية الدقيقة ما لم يتم نضج العضلات يستطيع الفرد أداء بعض المهارات الح الدقيقة وتحقيق التآزر الح -الحركي .وعليه فإن التغيرات التي تطرأ ع الأجهزة الجسمية والحسية والعصبية المحكومة بالمخطط الجيني لا بد من توفرها حتى يحدث التعلم.

2-الاستعداد :

يمكن النظر إلى مفهوم الاستعداد ع أنه حالة من التهيؤ النف والجسمي بحيث يكون فيها الفرد قادرا ع تعلم مهمة أو خبرة ما .ويسهم الاستعداد في عملية التعلم ع نحو فاعل .ففي كثير من الأحيان، تفشل عملية التعلم لدى الأفراد رغم المحاولات الجادة، بسبب غياب عوامل الاستعداد لديهم، ويرتبط الاستعداد

بعوامل النضج والتدريب .فالنضج يوفر الإمكانات والقابليات التي من شأنها أن تثير الاستعداد لدى الأفراد لتعلم مهارة معينة، في حين يعمل التدريب ع تطوير الاستعداد وتحفيزه لديهم.

3-الدافعية :

تسهم الدافعية في حدوث عملية التعلم في كونها تزيد من جهود الفرد ومثابرته أثناء عملية التعلم، وتعمل ع توجيه مثل هذه الجهود نحو مصادر التعلم المناسبة واستخدام الإجراءات والأساليب الملائمة.

وتعرف الدافعية ع أنها حالة توتر أو نقص داخ تستثار بفعل عوامل داخلية)كالحاجات والميول والاهتمامات (أو عوامل خارجية)كالمثيرات التعزيزية الخارجية :البواعث(، بحيث تعمل ع توليد سلوك معين لدى الفرد وتوجه هذا السلوك وتحافظ على استمراريته حتى يتحقق الدافع.

تسهم في عملية التعلم من حيث :

أ- توليد السلوك للتعلم .فالدافعية تستثير السلوك بغية تخفيف التوتر الناتج يفعل وجود دافع أو حاجة لدى الفرد أو هدف يسعى إلى تحقيقه .

ب - توجيه السلوك نحو مصدر التعلم، فهي تعمل ع توجيه السلوك نحو المعلومات والمصادر المهمة ذات العلاقة والتي من شأنها أن تساعد في تحقيق الأغراض والأهداف وإشباع الدوافع .

ج-استخدام الإجراءات والوسائل المناسبة لتحقيق التعلم .

د-الحفاظ ع ديمومة واستمرارية السلوك حتى يحدث التعلم.

4-التدريب والخبرة :

يتمثل عامل التدريب في فرص التفاعل التي تتم بين الفرد والمثيرات المادية والاجتماعية التي يتعرض لها في البيئة .فمثل هذه الفرص تسهم في تزويد الفرد بالخبرات والمعلومات عن الأشياء وخصائصها، الأمر الذي يتيح له إمكانية تعلم أنماط سلوكية جديدة أو التعديل في الأنماط السلوكية الموجودة لديه، وذلك من أجل السيطرة ع المثيرات البيئية التي يواجهها او يتكيف معها.

كما يتضمن التدريب عدد المحاولات والزمن الذي يستغرقه الفرد في تعلم مهمة ما .فإتقان التعلم يعتمد ع المحاولات الجادة التي يقوم بها الفرد . سيما في حالة وجود تغذية راجعة لهذه المحاولات .وتتوقف الخبرة والممارسة ع طبيعة البيئة التي يعيش فيها الفرد ويتفاعل معها؛ فالبيئات الغنية بمثيراتها الاجتماعية والمادية توفر فرصا للممارسة والتعلم أكثر من البيئات الفقيرة، وهذا بالتالي يزيد من فرص التعلم والاكتساب .كما أن البيئات التي تمتاز بالتسامح والتقبل والدعم تسهم في زيادة فرص التفاعل أكثر من البيئات المتشددة، الأمرالذي يزيد من خبرات الأفراد وتنوعها .

أهمية دراسة نظريات التعلم :

نظريات التعلم هي عبارات وصفية منطقية مثبتة تختص بفهم وتفسير ظاهرة وسلوك التعلم من وجهة النظر الخاصة بها.

-ندرس نظريات التعلم لأهميتها في تسهيل عملية التعلم وفهم كيفية اكتساب المعرفة. تعتمد هذه النظريات على فهم كيفية استخدام المعلومات وكيفية إنشاء المعرفة. تشمل النظريات المختلفة السلوكية، البنائية المعرفية وغيرها، وتوفر أساسًا لفهم تقدم نظريات التعلم الأطر التي تساعد في فهم كيفية استخدام المعلومات.

-تكمن أهمية هذه النظريات في تحديد كيفية تعلم الأفراد وتوجيه عمليات التعليم وتصميم البرامج التعليمية.

-تعتبر نظريات التعلم أساسية في الميدان التربوي حيث تساعد في تحسين جودة التعليم وفهم احتياجات الطلاب وتوجيه عمليات التعلم والتدريس.